قصر الحير الشرقي

تقرير أولي عن الموسم الاول للحفريات

القسم الأول

بقلم الدكتور : اوليغ غوابر
ترجمة وتلخيص : خالد أسعد

يقع قصر الحير الشرقي في الصحراء السورية ، ويبعد حوالي ١٠٥ كيلو مترات عن تدمر ، و ١٢ كم عن قرية « الطيبة » الصغيرة . بقي مجهولاً ولم يدرس منذ بداية القرن التاسع عشر وحتى عام ١٩٢٥ ، عندما قام كل من « ا . غابرييل » و « ك . ا . س كريزويل » بمسح وتصوير جزئي للموقع ، في نفس الوقت تقريباً الذي صدرت فيه نتائج رحلات « ا . موزيل » الواسعة . وقد وضعت عدة فرضيات عن هذا الموقع ، منها فرضية موزيل الذي اعتقد بأن هذا الموقع ليس الا « ادادا » القديمة . بينما تحاشى « دوسو » أية دراسة دقيقة لاسم الموقع في فترة ما قبل الإسلام ، ان صح أي اسم له .

وأهم من تلك الفرضيات بكثير تلك التي وضعها « ج . سوفاجيه » فقد اعتمد بدراسته على تلك الوثيقة الأثرية الواضحة المعروفة عن الموقع (الكتابة التي شاهدها القنصل الفرنسي « روسو » عام ١٨٠٨ واختفت منذ ذلك الحين) والتي أشارت إلى تأسيس مدينة على يد الخليفة هشام عام

ملاحظة يرجى مراجعة الهوامش والمراجع في المقال الأصلي المنشور في القسم الأجنبي من المجلة .

٧٢٨ — ٧٢٩ . واستناداً اليها اعتقد سوفاجيه ، بأن هذا الموقع هو « رصافة هشام » المعروفة جيداً في نصوص العصور الوسطى ، وعلى الغالب فقدت هذه الفرضية أهميتها على ضوء التنقيبات التي جرت في الرصافة نفسها . ولكن مثلها كمثل تفسيرات كريزول التي سبقتها . فان تحليل « سوفاجيه » قد ركز الاهتمام على الخصائص الإسلامية الوسيطة المحددة ، وأكثر من ذلك على خصائصه الأموية المميزة .

ومنذئذ لم يكتب شيء تقريباً عنه ، ولم تعرف هويته قبل الإسلام (ان وجد) أو بعده . ورغم ذلك فان أطلال قصر الحير تترك أثراً عميقاً في النفس ، وهي في متناول الجميع . تقوم على اقدام « جبل البشري » بطول ستة كيلو مترات ، وأقصى عرض ثلاثه كيلو مترات . ويحدده جدار يشاهد بالصورة الجوية أو الصور الأرضية ، لا تزال بعض أقسامه الجنوبية ترى قائمة ، تدل بفتحاته غير المألوفه (الشكل ١) على نظام خاص ، سبب تضارب الآراء بين أولئك الذين عالجوا هذا الموضوع ، ومن المناسب أن نعزو وجودها إلى مسألة المياه والسقاية . توجد الإنشاءات الرئيسية في الجهة الشمالية ، وسط مجموعة كبيرة من الأساسات والجدران والأقنية ، وإلى الجنوب والغرب من وادي كبير غير طبيعي ، تقف الجدران الخارجية (للقصرين) .

فالقصر الكبير (الشكل ٢) مربع الشكل طول ضلعه حوالي ١٦٠ م ، له أربعة مداخل ، يقع كل منها على محور الآخر ، وهناك مدخلين اضافيين صغيرين في الجدار الشرقي .

وفي زاوية القصر ، الجنوبية الشرقية ، توجد ثمانية عضائد ، لا يزال بعضها يحمل ويدعم بعض الأقواس . وعلى احداها شاهد (روسو) الكتابة المتضمنة اسم هشام ، وقد قال كريزويل بأن هذه الدعائم جزء من مسجد .

والقصر الصغير ، مربع الشكل طول ضلعه ٧٠ متراً ، ذو مدخل وحيد في الجدار الغربي المرمم تشاهد في داخله غرف عديدة ذات سقوف معقودة ، وبقايا بروز في الجدران الخارجية القائمة تشير إلى أماكن الجدران الداخلية الرئيسية .

ان معظم المعلومات والدراسات ذكرها كريزويل وغابرييل نتيجة مشاهدتهم للاطلال الظاهرة ، وان الشهرين اللذين قضيناهما في الموقع تسمح لنا بابداء تعديلات كثيرة على ملاحظات من سبقونا ، سنذكرها فيما بعد .

على أي حال لم تتح الفرصة لغبربيل أو كريزول لدراسة أعمق للاجزاء الظاهرة في الموقع فعلاً ، والتي لا تشكل إلا جزءاً صغيراً من المساحة التي يشغلها البناء أصلاً .

وأكثر من ذلك ، فان أموراً كثيرة لا تزال غامضة بالنسبة لتاريخ قصر الحير الشرقي ، فليس لدينا غير وثيقتين واضحتين تشيران الى تاريخه ، إحداهما الكتابة المذكورة سابقاً ، التي تشير الى بناء مدينة بأمر الخليفة هشام في (١١٠ هـ) ٧٢٨ / ٧٢٩ ، وقد وجدت على العضادة الثانية (ج - على الشكل ٣٠) للجامع ، ومن المؤكد أنها كانت حجراً اعيد استعماله لهذا الفرض كما كان يظن « غابربيل » وعليه فقيمتها الرئيسية ، باشارتها الى وجود مدينة أموية في هـذا المكان ، ولكن ذلك لا يسمح لنا باستخلاص النتائج بشكل آلي (بدون ابداء حجج أكثر) بأن القصر الكبير ، المعروف بشكل محدد هو المدينة الأموية .

والوثيقة الثانية لتأريخـــه هي واجهة القصر الصغير . فأسلوب بناء أبراجها ، وعلى الأخص زخارفها الجصية التي تذكرنا بواجهات قصور أموية اخرى ، وهذا يسمح لنا أن نقول ، بأن مطلع القرن الثامن يستند على مرتكزات من أساليب البناء .

وغير ما ذكرنا ، فكل ما عرف بعدها أثرياً ، هو أن شخصاً غير معروف ، كتب اسمه على قوس غريب في وسط القصر الكبير في القرن الخامس عشر .

ان الاسئلة التي تطرحها مشكلة الغاية من اطلال قصر الحير الشرقي ، وتاريخها ، وهويتها ، ستبقى ألغازاً رئيسية في التاريخ الأثري لسورية . وكهدف لالقاء أضواء على عقدة الحل ، أو جزء منها ، بدأت تنقيباتنا في هذا الموقع باسم متحف كيسلي التابع لجامعة ميشيغيان ، بمساعدة منحة صغيرة من مركزها المهتم بالدراسات في الشرق الأوسط وشمال أفريقية .

وقد استمرت حفريات الموسم الأول بـين ١٠ ايلول و ٣٠ تشرين أول ، وضمت البعثة الأعضاء التالية أسماؤهم :

البروفسور اليغ غرابر : مديراً .

الدكتور د . كوبان : مهندساً معمارياً .

السيد سلجوق باتور : مهندساً معمارياً .

السيد لوك جوارسيك : مهندساً معمارياً :

السادة : م . وليم رووسدال ، بيتربيك ، عادل عياش ، أعضاء أثريين .

السيد : ر . هملتون مصوراً وأثرياً .

وانضم الى البعثة السيد خالد أسعد (مدير متحف تدمر) ممثلاً لمديرية الآثار والمتاحف ، وكان لمساعدته المستمرة ، ودماثة أخلاقه ، الأثر الطيب في جعل عملنا مثمراً وممتعاً .

وإنه لمن دواعي سروري أن أعبر عن امتناني لكل المسؤولين في مديرية الآثار بدمشق وتدمر ، إذ لولاهم لكان عملنا وإقامتنا في غاية الصعوبه ، وكذلك للسلطات المسؤولة في تدمر والسخنة ، لمساعدتهم المشكورة .

الحفريات :

١ – القصر الصغير :

كان هدفنا هنا ذو شقين الأول : رغبتنا في تكوين العناصر الأولية لمخطط البناء الأصلي ، والثاني : توقعنا لاكتشاف تاريخ البناء وتطوره الزمني .

وللوصول الى ذلك بدأنا بحفر سبرين (الشكل ٢ آ) : ب١ : على مدخل البناء ، حسب بحيث يتضمن كامل المدخل (الشكل ٣) ، ومعظم الغرفتين على جانبيه ، وجزءاً مما يعتقد بأنه الباحة المتوسطة للقصر .

ب٢ : في القسم الجنوبي الشرقي للقصر ، بحيث يضم – على الأقل – إحدى وحدات السكن التي يشير إليها البروز الظاهر في الأقسام العلوية من الجدران الخارجية ولأن مكانه لن يؤثر – فيما بعد – على عملية ترحيل الأنقاض .

وقد وصلنا الى أهدافنا عدا واحد منها : فإن تراكم الأنقاض في المدخل ، وخطر انهيار بقايا الغرف على جانبيه ، منعنا من إتمام تعزيلها وترحيل أنقاضها . ولكن ذلك بالنسبة لأهدافنا الأولى ذو أهمية ثانوية .

آ – مخطط البناء الأصلي .

١ – بهو المدخل (ب١) ، إن معظم النتائج المستخلصة من بهو المدخل تساعد في معرفة مخطط البنـــاء الأصلي ، فمن المدخل الرئيسي وحتى مسافة (١٫٧٥) نحو الداخل ، تم ترحيل

الأنقاض عن المشى (الشكل ٤) المؤلف من حجارة منحوتة مثبتة بالملاط ، ويبتدىء بعتبة صغيرة عن السوية الخارجية ، ثم ينحدر بعدها بلطف نحو الداخل مشكلاً بهو المدخل (٧ × ٣٠ر٥) م ، وتتجه حجارته المرصوفة من الشمال إلى الجنوب عرضها (٦٠ سم) . ويصبح إتجاهها من الشرق الى الغرب لبشكل رواقاً عرضه (٥) أمتار .

ينتهي الرواق بقواعد الأعمدة ، وقد ظهر خمسة منها ، وتتراوح المسافة بينها من ٤ أمتار في القوس المتوسط ، الى ٢٥ر٣ م للقوس الواقع في أقصى الجنوب ، ولا يمكننا الجزم بأسلوب بنائها قبل مزيد من التنقيبات .

ويتألف البلاط من حجارة صغيرة منحوتة بشكل يختلف عن مثيلها في الرواق الرئيسي (الشكل ٥) ، وبعد ان نهبط درجة صغيرة اخرى (حوالي ١٥ سم) يبدأ بلاط الباحة الذي لم يكشف غير قسم يسير منه . والى جنوب المدخل تمر قناة على عمق حوالي (٥٠ سم) تحت سوية البلاط ، وتنعطف القناة فجأة نحو الشمال غربي المدخل بقليل ، ولم يعرف بصورة أكيدة سبب وجودها ، إذ ربما كانت قناة للتصريف ، أو لتغذية القصر بالمياه (ربما للحمام أو للنافورة) ، بسبب إنحدار سوية البلاط من المدخل باتجاه الداخل ، إذ أن المنطقة الجنوبية الشرقية (ب٢) تنخفض (٩٠) سم عن سوية المدخل . وتختلف قواعد الأعمدة في عرضها وطولها ، واحدها على الأقل (الشكل ٦) يبدو شاذا بوجه خاص باحتوائه على حجر طاحونة . وقد عثر على عشرة أجزاء من أعمـدة في بهو المدخل ، أربعة منها (الشكل ٧) وجدت منهارة باتجاه الجنوب الشرقي . وهذه الأعمدة الأربعة ، بالاضافة الى اثنين آخرين لا يزالان مطمورين بين الانقاض ، عرض كل منها حوالي (٥٥ سم) وارتفاعه (٧٠ر٣ م) ، من المؤكد أنها تعود الى القواعد الباقية .

والأربعة الأخيرة ، وجدت أخفض منها ، وهي أقل عرضاً وأقصر طولاً . ويمكن الافتراض بأنها كانت تشكل جزءاً من رواق الطابق الثاني أو شرفاته ، إنهارت قبل إنهيار أعمدة الرواق الرئيسي ، فأعيد استعمالها لأغراض مختلفة في عصر متأخر ، أو أنها دحرجت وغمرت بالأنقاض . اكتشفت ثلاثة تيجان ، إثنان منها يلفتان النظر ، أحدهما (الشكل ٨) عثر عليه في إحدى الغرف ، منقولاً إليها في عهد متأخر ، وان اسلوب نحته الرائع ، يبدو جلياً في تناسق أوراقه الكورنثية وانتظامها ، ويحتاج تأريخه الى مزيد من البحث .

أما التاج الثاني (الشكل ٩) فرغم أنه أقل أثراً من الناحية الجمالية ، لكنه أكثر أصالة بخطوطه الواضحة المحفورة على غطاء جصي ، يشكل قشرة تغلف تاجاً ، حجرياً قديماً لا يمكننا لسوء الحظ معرفة اسلوبه إلا إذا حطم هذا الغطاء . ويبدو من خلال جزء تحطم بسبب سقوط التاج على إحدى زواياه ، ان اسلوب القسم الداخلي منه يختلف عن اسلوب القشرة الخارجية ، ولكننا الآن لا يمكننا الجزم بصورة قاطعة . ان تعليل هذه الظاهرة الفريدة لا بد وأن تكون باعادة استعماله على رأس عمود أضخم من الأول . وكذلك استعمال حجر الطاحونة كقاعدة لأحد الأعمدة ، يقودنا الى استنتاج مزدوج أحدهما : أن من قاموا ببناء القصر ، وقد وجدوا بعض المواد جاهزة من بناء أقدم وأقل شأناً ، وثانيهما : أنهم كانوا على عجل من أمرهم ، ولم يتمكنوا من وضع التصاميم المفصلة لرواقه .

لقد كشفنا بصورة تامة عن أربعة جدران متجهة من الشرق الى الغرب ، وجدارين متجهين من الشمال الى الجنوب ، لتبرير بعض شروحنا ، ولتقودنا الى نتائج تجريبية .

فإذا بدأنا من ناحية الشمال ، فاننا نصادف أولاً قسماً من الجدار الشمالي للغرفة رقم (١) والتي يحمل جزءاً من قنطرة لا تزال قائمة . ان الجزء الحجري من هذا البناء متآكل بشكل كبير مثل معظم أجزاء البناء ، بفعل التفاعل الكيماوي للتربة المتراكمة فوقه ، وهي من الناحية العملية تالفة وتتطلب تغليفها بالاسمنت لمنع العقد من السقوط . لذا فانه من الصعوبة اعادة بنائها إلا في موضعين يبدو فيهما فنان يختلفان تماماً . فبينما يظهر المدماكان السفليان المقابلين للسور الخارجي المرتفعين الى علو مترين ، الدقة في نحتها وعمارتها كتلك التي يتصف بها السور الخارجي ، نرى حجارة باقي الجدار على غير انتظام في نحتها أو غمسها في الملاط . وبناء عليه ، يبدو أن هذا الجدار قد أعيد بناؤه كاملاً عدا المترين القريبين من السور الخارجي . وان كشف القسم الداخلي من السور الخارجي لم يعطنا أية ملامح جديدة عدا بعض التزيينات المهشمة على ارتفاع (٣ر٤٠) م وقد كشف حفر خندق صغير تحت الحائط عن إنعدام أي أساس عميق له ، فالأرض البكر على عمق ٥٠ سم ، ويكاد أساسه المكون من الحجارة الصغيرة والملاط ، أن يتساوى مع الجدار ذاته في عرضه .

والجدار الجنوبي للغرفة رقم (١) الذي يفصلها عن البهو (الشكل ١٢) يرينا بوضوح أكثر من الجدار الشمالي ، الطابعين المتميزين للبناء والخطوط التي تميزهما عن بعضهما ، ويقع على بعد (٢ر١٠) م من الزاوية الجنوبية الغربية .

إن النموذج الثاني (أي العمارة بحجارة خام) يحيط ببقية الغرفة وبمدخلها المتهدم (ارتفاعه ٢ م وعرضه ١ م) ويضم عناصر تستعمل للمرة الثانية .

ليس هناك الكثير ليقال عن الوجه الجنوبي لهذا الجدار (عرضه ١٥ر٥ م) ، بينما يستحق الذكر الجدار الواقع إلى جنوب المدخل ، إذ يشكل لغزاً لم يحل بعد . فسماكته نفس سماكة الجدار السالف الذكر ، وله بوابة أكبر إلى حد ما من البوابة المذكورة ، ولكنهما تتشابهان شكلا . فلها طراز بناء الأسوار الخارجية ، ويقل عرضها كلما ازداد ارتفاعها ، كما هو الحال في مجموعة الأبواب في (٢ ب) والتي لها من الأصالة ما للأسوار الخارجية . ولكن هذا الاستنتاج يصطدم بالطابع الغريب للجدار الممتد ما بين الباب والمدخل الرئيسي . فعلى بعد (١٫٧٠ م) من المدخل وجد قوس يشبه المحراب (الشكل ١٥) محفور بحجارة تشبه إلى حد بعيد حجارة السور الخارجي وعلى كل حال ، إذا أهملنا دور هذا القوس ، فانه على عمق (٦٥ مم) يظهر خلفه واجهة جدار آخر له نفس المميزات . وافتراض ان مكان الجدار الأصلي هنا ، يخالفه وجود عتبة الباب والبروز الظاهر على السور الخارجي ، وأيضا بتوافقه مع الجدار الشمالي لبهو المدخل . ونترك المستقبل تعليل وجود الواجهة الواقعة وراء القوس . لقد كشفت أجزاء من الجدار الموجود في أقصى الجنوب ، ووجد ان الخراب لحق به أكثر من سابقاته . وأهم ما يلفت النظر فيه ، احتواؤه على باب ذي محور يختلف تماماً عن محاور الأبواب السابقة . وقد اغلق في فترة لاحقة .

فإذا ما اتجهنا الآن إلى الجدران ذات الاتجاه شمال جنوب الموازية لأعمدة الرواق ، فلا نجد غير نقطتين تستحقان ان نلمح بهما ، الأولى : انه في شمال المدخل لا نجد أي أثر لجدار قديم ، وان ما نراه بني بحجارة غير منحوتة . وفي داخل الرواق — مقابل الجدار — عثر على عدد من الأحجار الكبيرة القائمة بشكل شبه دائري ، كان بالأصل مفروشا بالملاط ، ومن المحتمل جداً أن يكون هذا الحوض أو الخزان قد حفر من الأعلى ، وانه يعود إلى فترة متأخرة من تاريخ هذا البناء .

والنقطة الثانية : هي انه في القسم المكشوف من الجدار جنوبي بهو المدخل (الشكل ١٧) نجد أن المدماكين الأولين منه لهما نفس مميزات السور الخارجي ، بينما نلاحظ ان الأقسام التالية تضم أحجاراً ضخمة مختلفة الأحجام تتقارب من بعضها ، يدعمها الطين بدل الملاط كما في القسم

الشمالي . وهذا يعني ان نموذجاً ثالثاً محيراً يظهر هنا ، كان يستعمل أيضاً لسد المدخل المؤدي من الغرفة (١) إلى بهو المدخل .

وإذا أردنا تحديد ارتفاع البناء ، فيمكننا إيراد الملاحظات التالية : اكتشفت عناصر أولية لدرج آخر في الجهة الشمالية ، ولكن هذا الأمر لا يمكن تأكيده .

والأهم أن نذكر بأن مستوى ارتفاع غرفة (١) وغرفة (١^(١)) لم يكن متساوياً رغم تشابهها .

ففي الغرفة (١^(١)) يمكننا التأكد بدقة من أن مستوى ارتفاع دعائم الجدران (٣،٤٠ م) وارتفاع الأقواس (٦،٣٥ م) لأنها لا تزال قائمة ، ومن ناحية ثانية ، فإن ارتفاع الجزء الوحيد من الدعامة الباقية في الغرفة (١) يبلغ (٢،٨٠ م) ، فوق أرض الغرفة ، أما القوس ــ غير موجود حالياً فيمكن ملاحظة أثره حتى ارتفاع (٣،٦٥ م) ، وهذا يعني ان الطوابق العليا للبناء كانت على مستويات مختلفة . ولم نعثر إلا على أثر قليل للطابق العلوي ، عدا أجزاء ضخمة من القرميد والأحجار في الغرفة (١^(١)) المتضمنة أجزاء من العقد وبعض الأحجار والعتبات من الأرضية العلوية المغموسة بالملاط .

ولا يمكننا الجزم بكيفية بنائها فلا بد أن ننتظر اكتشاف أقسام أخرى في مكان ما من القصر ، والأمر بمجموعه يبقى لغزا ، عدا حقيقة عثورنا على هذه الأجزاء والأعمدة الصغيرة الموجودة في الرواق ، فإن تفاصيل هندسية قليلة تلك التي وجدت ، ويمكننا نسبتها إلى طابق علوي كان مشيدا . فإذا ما قارنا هذا بالملامح الغامضة الملاط الداخلي للسور الخارجي (كعدم انتظام الروابط البارزة منه وانعدام التوازي فيما بين شكل المدخل وآثار الأقواس المقابلة له) فإن هذه الشواهد تقودنا إلى الافتراض ، ان البناء لم يكمل تماماً ، أو انه قد عدل مخططه في عصر متأخر .

وعلينا أن ننتظر نتائج تنقيبات ودراسات أخرى للأسوار الباقية ، للتأكد من هذه النقطة .

تبقى ملاحظة حول الشواهد الدالة على الحالة الأصلية لمنطقة المدخل . ويقودنا هذا للبحث في الغرف (١) و (٢) و (١^١) . تضم الغرف (١ و ٢) أحجاراً وعتبات جيدة النحت متقاربة . أما في الغرفة (١^١) فان العتبات أسمك وأكثر تباعداً (مما يسبب سرعة تآكلها) وقد بني في زاويتها الجنوبية الغربية (الشكل ١٢) موقد صغير من الحجارة التي أعيد استعمالها ، تشبه تماماً أحجار عضادتي الباب في الغرفة ذاتها .

وقد يتبادر إلى الذهن ان كل أرض الغرف قد استبدل أو رمم في نفس الوقت الذي أعيد فيه بناء الجدار وفق نموذج العمارة الثاني السالف الذكر .

وايجازاً لذلك ، فانما كُشف في منطقة المدخل يقودنا إلى استنتاجات أولية للحالة التي كان عليها البناء :

آ ـ كان هناك بناء قديم بقي منه : الأسوار الخارجية ، أجزاء من الجدران العمودية عليها ، المدماكين الأولين للنصف الجنوبي من جدار الرواق ، القناه ، بلاط المدخل ، الرواق والباحة ، وأجزاء من الغرفتين (١ و ٢) ، وأخيراً صف الأعمدة وتيجانها .

ب ـ لا يمكن الجزم بأن هذا البناء قد انهي تماماً ، ولكن من الثابت حدوث أعمال اعادة للبناء أو اكماله على المخطط ذاته إلى حد بعيد ، ويبدو ذلك واضحاً من أرض وجدران الغرفة (١) وموقدها ، وقد يضاف اليها المحراب في بهو المدخل ، مما يدل على انه قد طرأ تغيير كبير على الهدف الذي أقيم البناء له أصلا أثناء اعادة البناء ثانية .

جـ ـ ليس واضحاً قيام حملة بناء ثالثة استخدمت العناصر التي سبقتها ، كما يشير إلى ذلك نموذج البناء في النصف الجنوبي للرواق الذي يختلف عن سابقه . وسنعود فيما بعد لتحديد زمن هذه الانشاءات ، ولكن لا بد من ذكر نقطة هنا ، وهي تغيير نموذج البناء الواضح في الجدران ، مما يبعث على الحيرة في مسألة الأقواس الباقية في المدخل ، ويقودنا بالتالي إلى مسألة الطابق الثاني الأكثر تعقيداً . لأنه لو كانت الجدران قد بنيت من الأرض إلى الأعلى ، فكيف يمكن أن تكون الأقواس باقية ؟ وهل كانت اعادة بناء الواجهة في الباحة مع صفي الأعمدة ، أو حق البناء الفعلي لصف الأعمدة ، ميزة من مميزات الفترة الأولى أو الثانية ؟

وعلى حل هذه الاسئلة ، يتوقف فهم البناء بكامله ، وليس لدينا من المعطيات ما يسمح لنا بالاجابة عليها بعد ، ولكن عرض هذه الاسئلة بجلاء ومحاولة الاجابة عليها يشير الى إتجاه عملنا المقبل .

٢ ـ السبر الجنوبي الشرقي (ب٢)

إن حفر السبر الكبير (١٨ × ٩٫٥) م في القسم الجنوبي الشرقي ، أدى الى نتائج أوضح فيما يتعلق بحالة البناء الأصلية .

فقد عثر على عضادة زاوية الرواق بشكل حرف (L) (٢ × ١) م يرتفع مستواها قليلا عن مستوى الباحة . ان بلاطه شبيه ببلاط بهو المدخل . وينفتح عليه بابان ، أحدهما يؤدي الى غرفة شرقية لم تنقب بعد (الشكل ٢٠) بينما يؤدي الثاني الى قاعة واسعة . رصفت أرضها بعناية ، وينفتح عليها بابان أحدهما في الجهة الشرقية وثانيهما في الغربية . ان الجدران المكتشفة دلت على فن بناء منسجم لم يطرأ عليه أي ترميم ، وان نموذج البناء كما هي حالة الأبواب ، يدل على فن ذي صلة وثيقة بأسلوب بناء الجدران الخارجية . ومن ناحية ارتفاعها ، فان ملاط المدخل ، يشبه ما وجد في كل من الوجه الداخلي للسور الخارجي على ارتفاع ٢٨٠ سم (الشكل ١٩) والجدار الداخلي وقد وجد منه ارتفاع مناسب .

والاكثر أهمية كان اكتشاف الوجه الداخلي للجدار الخارجي ، ووجد مدما كان من القرميد تحت الطنف ، لغرض تزييني ، ويعلل وجودها وجود طبقات مشابهة من القرميد في القسم العلوي من الجدار .

لقد أتاح لنا حفر خندق صغير تحت عضادة الباب الجنوبي الشرقي ، أن نكتشف أساسات جيدة ، وبعض مخلفات لاشياء محروقة لم يمكن معرفتها حتى الآن .

آخر ملاحظة هامة عن الحالة الاصلية لهذا الجزء من البناء ، هي أنه بالرغم من أنها لا تشير الى عملية ترميم كاملة لمنطقة المدخل ، ولكن في نفس الوقت تدل على أنها سكنت ، على مستوى الأرض الأصلية . وإذا ذكرنا التفاصيل الهندسية ، فاننا نذكر الموقد المكتشف في الزاوية الجنوبية الشرقية من الرواق ، واستخدام بعض الأحجار المنحوتة لمنصة في الرواق (الشكل ٢١) .

ان وجود هذه الأحجار متوضعة مباشرة على الأرض الأصلية ، تبعث على الظن بأن فترة غير معروفة تفصل وجودها هناك ، عن الأرض الأصلية ، ومن كونها منحوتة نستدل على أن البناء الأصلي لم يتم ، وان بعض أحجاره قد أعيد استعمالها ، أو أن البناء قد هدم واعيد بناؤه مرة ثانية .

وهكذا فان حفر هذا الخندق قد يثبت بصورة قاطعة ما افترضناه عن منطقة المدخل ، ويدل أيضاً على ما طرأ عليه من تغييرات واسعة عند استعماله للمرة الثانية .

ب – ان وصف الحالة الأصلية للقصر في المنطقتين اللتين جرى فيهما التنقيب ، يقودنا إلى تقرير فترتين متميزتين جرى خلالهما هذا البناء . الفترة آ ويمكن تحديد هويتها من خلال دراسة الجدران الخارجيه ، وأغلب ما تبقى من أماكن الجدران الداخلية ، بلاط الأرصفة وصفوف الأعمدة

التي يمثلها جميعاً اسلوب بناء الجدران الخارجية المعروف سابقاً من أوصاف « غابرييل وكريزويل » وكلها تنسب إلى الفترة الأموية استناداً إلى نموذج بنائها . ان اثبات ذلك يتضمنه مخطط القسم الداخلي للبناء وهي تتوافق مع ما هو معروف عن أبنية القصور الأموية ، وكذلك التيجان التي يصعب تأريخها ولكنها تتوافق أيضاً مع أسلوب البناء الأموي .

ويجب أن نذكر بأنه ليس لدينا غير الاثباتات الهندسية لتلقي شعاعاً من النور في تأكيد أو نفي نسبته إلى الفترة الأموية .

لم نعثر على أية قطع من النقود ، أو نماذج من (السيراميك) التي تمكننا أن ننسبها دون شك للعصر الأموي أو حتى عصر ما قبل الإسلام .

وقد عثرنا على جزء صغير من الحجر في القسم الجنوبي الشرقي للبناء عليها اشارة تمثل الرقم اللاتيني XII (الشكل ٢٢ ـ ه) ويمكن أن يعود إلى عصر ما قبل الإسلام أو إلى العصر الإسلامي الأول دون اثبات أو تفسير أكيد لذلك .

ان السبب في انعدام تلك الموجودات الأموية ، هو انه اثناء عملية البناء الثانية قد استخدمت نفس الأرض السابقة . ويجب أن ننسب معظم ما عثرنا عليه فوقها إلى هذه الفترة .

وبالرغم من أنها غالباً ما تكون منتشرة من الأعلى - وخصوصاً في منطقة المدخل والجزء المركزي للخندق الجنوبي الشرقي ـ فان هذه الفترة القت حزماً من النور على سلسلة من الكسر الفخارية والتي يمكن تأريخها بوضوح تام .

وتتضمن هذه اللقى مصنوعات خزفية ذات طلاء براق وجزءاً من الخزف غير المعروف فيما نشر عن سورية (الشكل ٢٢ E) وكذلك حوالي ثلثي كأس .. (الشكل ٢٣) عثر عليها في الخندقين ويرجع تاريخها إلى القرن التاسع ، حوالي منتصف القرن إذا نسبناها مباشرة إلى سامراء وإلى أواخر ذلك القرن إذا شئنا ارجاعها إلى أصل مصري ١٢ . بالاضافة إلى ذلك عثر على قطعة نقود تحت عضادة الباب المؤدي إلى الغرفة (١') ، وهي لسوء الحظ متآكلة جداً ، ويمكن معرفتها بصورة تقريبية بواسطة اسلوب كتابتها .

ان هذه المعطيات تجيز لنا تأريخ الفترة ب في العصر العباسي الأول : ان هذه الأشياء القابلة

للتاريخ تساعدنا في إيراد تاريخ واضح للمجموعة الخزفية الأقل تميزاً منها ، ولكن هذه المهمة تحتاج إلى وقت أطول للوصول إلى نتيجة .

ان التاريخ المتأخر لهذه الفترة أكثر تعقيدا ، فبينما تتوافق المعطيات الموجودة في كل من المدخل والسبر الجنوبي الشرقي ، فيما يتعلق بمعرفة المراحل الرئيسية لسكنى هذا المكان ، فانها ليست كذلك ، إذا أخذنا بعين الاعتبار مجموعة الخزف المختلف أو هيكل البناء المتأخر . والسبب في ذلك يعود إلى حقيقة ان منطقة المدخل قد أصابها الاضطراب مراراً أكثر من القسم الخلفي من القصر ، وقد تأثرت أكثر ــ إذا وصفنا طبقاتها ــ بحوادث سقوط أعمدة الباحة ، وبقاء العقد في الغرفة رقم (١) واستمرار استعمال المدخل كممر رئيسي للقصر طوال قرون عديدة .

وعليه ، إذا أردنا تفصيلا وافياً لتاريخ القصر الصغير ، فسوف نحتاج إلى دراسة دقيقة لجزء آخر من البناء مستقبلا ، وذلك ما ننوي القيام به خلال موسم تنقيباتنا القادم . وعلى أي حال ، فان موسم حفريات عام ١٩٦٤ قاد إلى عدة افتراضات قد تخدمنا كدلائل لأهدافنا القادمة ، وتعطينا فكرة تقريبية لتطور الموقع في العهد المتأخر .

ان العهد الرئيسي الثاني المتعلق بالقصر الصغير في قصر الحير ، هو الفترة (ج) التي وجدت أرضياتها من ١،٠٠ ــ ١،٤٠ متراً فوق الأرض الأصلية .

وتتوضح هذه الفترة في منطقة المدخل بسقوط صف الأعمدة ، واستعمال هذه الأعمدة المنهارة كقواعد لطوابق جديدة ، احداها كانت من الأحجار المغموسة بالملاط .

ويبدو ان العقود كانت لا تزال واقفة ، لأنه في معظم الأمثلة فان المستوطنين المتأخرين وطدوا أنفسهم على العيش داخل الجدران الباقية ولم يتوسعوا نحو الباحة .

ومن الصعب تحديد هوية هؤلاء المستوطنين .

وانهم في الخنـــدق الجنوبي الشرقي (الشكل ٢٤) قد أضافوا جدراناً من الأحجار الضخمة استعملوها للمرة الثانية ، الا ان ما تبقى منها قليل فوق المدماك الأول ، ونلاحظ انهم قد شيدوا عدداً كبيراً من الغرف الصغيرة أو الأكواخ داخلها ، وفيما بين كل من الفترة ب و ج هنالك شواهد على مستويات عديدة وبسيطة يمكن تمييزها بواسطة الطبقات المحروقة أو بسد الباب المؤدي من الغرفة (١) إلى الغرفة (٢) (الشكل ١٦) .

ومن المستحيل تحديد الاختلاف بين هذه الطبقات البسيطة الآن ، لأنه لا تبدو ثابتة المستوى على طول البناء . ولتاريخ الفترة ج لا نملك أي شاهد غير « الخزف » ونص غير مؤرخ .
ويظهر ذلك النص على أحد الأعمدة (الشكل ١٩)[١٣] ولا بد انه كتب قبل سقوط العمود . وليس سهلا تاريخ مثل هذه النصوص — مع الأسف — وعلى أي حال فان ما تعطيه لنا هو فترة قد حدث بعدها الخراب فحسب .

ان الدراسة الأولية تجعلنا نظن بأن تاريخ هذا النص لن يتأخر عن بداية القرن الحادي عشر ولكن الأمر لا يزال مبهما .

ان اللقى الخزفية فيما بين (ب) و (ج) ذات شأن آخر ، ولكننا نجد بينها قطعا خضراء براقة ذات أشكال معروفة منذ القرن التاسع في الرقة ، قطعة مطلية ، وقطعة أو قطعتين يمكن نسبتها إلى العصر الفاطمي (الشكل ج) . وبالرغم من ان الاستنتاجات النهائية تنتظر تنقيبات اخرى ودراسات أعمق للأجزاء الأخرى بصورة فردية ، ومما يزيدها صعوبة هو حاجتنا للمواد المقارنة (١٤) فانه يبدو أن تاريخه يقع بين القرنين التاسع والحادي عشر .

ان الفترة الرابعة الكبرى (الفترة د) أقل من سابقتها وضوحاً من حيث أشكال طبقاتها ، إذا أدركنا ان استعمال هذا الموقع خلالها يفقد أي صلة بالبناء الأصلي ، لذلك فان مكان ونوعية مستوياتها تتنوع إلى حد كبير .

ان الفترة التي تلت انهيار العقود في الخندق الجنوبي الشرقي ، وإذا تحدثنا بلغة هندسية ، لم تكن متميزة بصورة خاصة ، وان هذه الفترة تتميز فقط بسلسلة من الأرضيات المصنوعة من الجص بشكل كيفي ، بالإضافة إلى عدد من الغرف الصغيرة المجهز معظمها بالمواقد والأفران (الشكل ٢٥) .

ان هذه الأرضيات تتقارب إلى حوالي المترين وإلى ما يقارب سطح الأرض ، ولم تنجح المحاولات الأولية للتمييز بينها ، وخصوصاً وان معظم اللقى الفخارية التي عثر عليها متشابهة . وان القطع ذات البريق الأخضر أو الأزرق فوق أجسام سميكة ، أو التي تحوي على خزف ذو بريق متعـــدد الألوان تنسب إلى منتجات الرقة والرصافة أو إلى « Sgraffiato » الشعبي ذي الألوان الخضراء أو البنية أو ذات اللون الكامد .

ومن بين هذه اللقى ذات اللون الكامد (غير براق) أجزاء عديدة ذات طلاء هندسي ١٥ أو ان طلاءها ذو زخارف حيوانية أو نباتية وفق اسلوب « الأرابسك » المعروف في الرقة .

وأهم اللقى قطعة عليها صورة طير اسطوري (الشكل ٢٦) ، وقطعة من الخزف الصيني ، وجرة الماء كامدة اللون كبيرة وتامة (الشكل ٢٧) . وتعود هـذه الأجزاء بالتأكيد إلى القرنين الثاني عشر والثالث عشر .

ان تعدد هذه الأجزاء ، والعمق الكبير لمستواها ، يؤكد الفائدة الكبيرة التي نالها هـذا القصر خلال هذه الفترة .

أما ما نوع هذه الفائدة فلا يمكن تقديره الآن ، ولكن المهم مقارنة غنى هذه الفترة بالخزف ، بفقرها من الناحية الهندسية .

والغريب ان نكتشف في أعلى مستوى للسبر الجنوبي الشرقي ، على أرضية ممهدة بعناية وذات أحجار منحوتة (الشكل ٢٨) معظمها كانت مستعملة في بناء أقدم . ولقد اكتشفنا تاريخاً يعود إلى هذه الفترة على حجرة اعيد استعمالها : عبد الله سنة سبعة (أو تسعة) وستمائة . ان نصف المتر الأعلى من الأنقاض ترك بقايا وآثاراً لاستيطانات عديدة تركت أحجار مطاحن وخزف محطم . وأهمية ذلك ثانوية في تأريخ هذا الموقع .

جـ - استنتاجات :

من السابق لأوانه استخلاص أية استنتاجات رئيسية في تأريخ القصر أو تحديد الغاية من وجوده . لقد أوردنا بعض التفاصيل والفرضيات المستخلصة من موسم عملنا الأول . بيد انه علينا التنويه والتعليق ، إذ ان عملنا الأولي والمحدد أثبت حقاً ان القصر الصغير قد أعيد تنظيمه لدرجة كبيرة في القرن التاسع .

وهذا يتضمن بالطبع معضلة رئيسية لتاريخ سورية الأثري ، ما دام القرن التاسع يعرف بركوده وضحالته في سورية ، فاما أن يعاد النظر في هذه الافتراضات ، أو أن نعزو هذا التطور في قصر الحير آنئذ ، انه كان مرتبطاً بشكل ما بالجزيرة ، أكثر من ارتباطه بسورية .

ان هذه النقطة بالذات وما نحمله بشكل مفصل ، تطرح أمامنا أسئلة جدية فيما يتعلق بماهية البناء الأصلي . هل تم بناؤه ومن ثمّ هدم ؟

هل لم يتم بناؤه اطلاقاً ؟ وأكثر الحاحاً ما هو الهدف منه ؟

ان وجود المواقد في الفترة الثانية يشير إلى ان الوحدات الاجتماعية التي سكنته كانت منفصلة لم تؤلف كياناً موحداً ولم تعمل في منظمة واحدة من أجل هدف واحد .

ولكن كيف الأمر بالنسبة للفترة الأولى ؟

ان شواهد الواجهة ، والباحة ، وصف الأعمدة تجعلنا نفترضها قصراً كما افترض كل من كريزويل وسوفاجيه . ومع ذلك فمن الغرابة أن تنعدم المعالم المشاهدة في القصور الأموية الرئيسية ، كالرسوم ، والفسيفساء والمنحوتات ، عدا أجزاء صغيرة من الزخارف الجصية .

أليس علينا أن نستنتج اذن انه قد خطط لقصر ولكنه لم يبنته أبداً (أو قد تعرى) ، أو انه أقرب مايكون إلى بناء ما أقيم ليكون أي شيء فيما عدا أن يكون قصرا ؟

وإلى مثل هذه القضايا سنعود فيما بعد لنقوم بتنقيبات أخرى .

(للبحث صلة)

خالد أسعد